

خطبة الوداع للرسول ﷺ
دراسة في ضوء آية (الشعرية)

Valediction Sermon of the Prophet
(A Study on Poeticism)

م.د. حيدر عبد الحسين مير زوين

م.د. مصعب مكي عبد زبيبة

Lectur. Dr. Haider `Abidalhussein Meer Azwein

Lectur. Dr. Mus`ab Maki `Abidzabeiba

خطبة الوداع للرسول ﷺ

دراسة في ضوء آلية (الشعرية)

Valediction Sermon of the Prophet
(A Study on Poeticism)

م.د. حيدر عبد الحسين مير زوين

م.د. مصعب مكّي عبد زبيبة

جامعة الكوفة/ كلية الآداب / قسم اللغة العربية

Lectur. Dr. Haider `Abidalhussein Meer Azwein
Department of Arabic, College of Arts,
University of Kufa

Lectur. Dr. Mus`ab Maki `Abidzabeiba
Department of Arabic, College of Arts,
University of Kufa

Haider.ha.zwain@gmail.com
musaab.zabiba@uokufa.edu.iq

تاريخ التسليم: ٢٠١٨/١٢/٢٧

تاريخ القبول/ ٢٠١٩/٥/٥

خضع البحث لبرنامج الاستئلال العلمي
Turnitin - passed research

ملخص البحث

يعد البحث محاولة في الخوض في غمار الشعرية والولوج في غمراتها المتلاطمة من خلال تطبيقها على نص بلاغي جليل هو خطبة الرسول الأعظم ﷺ والمسماة بـ (خطبة الوداع)؛ إذ درس البحث مستويات مختلفة من تلك الشعرية فدرس الاقتباس والتضمين، وشعرية الشرط وجوابه، وشعرية التوكيد، وشعرية الطلب، وشعرية التكرير، على مستوى تكرير الجملة، وتكرير اللفظ بعينه، إذ اختلفت آراء النقاد ومفاهيمهم حول مصطلح الشعرية والفصل بين لغتي الشعر والنثر، فمنهم من يرى بأن لغة الشعر تنزاح من لغة النثر العادي، ليتهاق بها الأديب من الدلالة الحقيقية في التركيب إلى دلالات مجازية أخرى تنموح فيها ألوان الجمالية والابداع فتجذب المتلقي وتؤثر به. تنوعت مستويات الشعرية في خطبة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي يطلق عليها بخطبة الوداع، إلى مباحث بلاغية ونحوية وصرفية عالية المستوى. ففي المبحث البلاغي كانت شعرية الاقتباس والتضمين والتشبيه، فضلا عن التكرير بشتى أنواعه على مستوى الجملة والمفردة، كانت له اليد الطولى في هذا الباع، وتمثل ذلك بالتناص المباشر، والتناص غير المباشر، إذ نهله الرسول الأعظم ﷺ من آيات الذكر الحكيم التي وجهها الباري بكل قيم الأخلاق والتهذيب؛ لتأخذ نسقا متطورا يمتد بين الطارف والتالد. وإذا انتقلنا إلى المباحث اللغوية ستبرز لدينا شعرية الشرط وجوابه وشعرية التوكيد التي اخذت حيزا واسعا لا يمكن تغفله لما انمازت به من فروق على سنن العرب وعاداتها من حيث الاستعمال النحوي. وهذا هو السر في جمالية النص المحمدي في خطبة الوداع.

Abstract

The current research study is an attempt to delve into the core of poeticism and its devices to be applied to the sermon of the greatest messenger ; valediction sermon . Moreover the article focuses on different levels of poeticism : intertextuality, allusion , poetic condition, poetic confirmation and poetic iteration on the scale of the sentence repetition and utterance repetition . The critics go controversial on the concept of poeticism and differentiation between the language of poetry and prose , some believe that the language of poetry derails from that of prose , the litterateur moves from semantics of structure to figurative semantics barded with aesthetics and creativity to capture the attention of the interlocutor . In the sermon , Valediction Sermon, there are certain poeticism levels to be tackled in eloquent and highly syntactic chapters. The eloquent chapter manipulates the poeticism of intertextuality , allusion , personification and repetition, word and sentence , as well and takes great priority over other chapters as the greatest prophet alludes to the Glorious Quran . In the second chapter , linguistics does the poeticism of condition and confirmation , that is why the Muhammadan texts appear so marvelous .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وبه تعالى نستعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين المنتجبين وبعده؛ فإن الشعرية مصطلح تعاور عليه مجموعة كبيرة من النقاد والباحثين قديما وحديثا، وقد اختلفت به الآراء، فمنهم من ارجعها إلى الشاعرية من قبيل الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) ومنهم من جعلها مرادفة لشروط الشعر الصحيحة من قبيل: قدامة بن جعفر (ت: ٣٣٧هـ) حيث عد الوزن، والقافية، واللفظ، والمعنى، هي التي تتفاعل مع بعضها تفاعلا مباشرا، لتنتج لنا الشعرية، ومن الفلاسفة الذين تحدثوا في الشعرية ابن سينا (ت: ٤٢٨هـ)، إذ جعل الشعر على طبقات ثلاث، الأولى: النثرية، والثانية: الخطابية، والأخيرة: الشعرية، حيث ترتقي الشعرية في المرتبة المتقدمة. ولا تتحقق إلا بتحقيق القسم الأول والثاني.

والبحث الحالي محاولة في الخوض في غمار الشعرية من خلال تطبيقها على نص بلاغي جليل هو خطبة الرسول الأعظم ﷺ والمسماة بـ (خطبة الوداع)؛ وقد استعان الباحثان بالمصادر الادبية والتاريخية واللغوية والدينية من أجل اخراج البحث بالصورة التي هي عليها الآن، وقد خرج البحث بنتائج لخصت اهم ما توصل إليه البحث. ولقد بذلنا في بحثنا هذا كل ما لدينا من جهد لنحيط بالموضوع من جميع أطرافه، ولا ندعي الكمال؛ فذلك لله وحده، ومنه التوفيق.

المبحث الأول:

أولاً: آراء الدارسين في مصطلح الشعرية:

تعد الشعرية انحرافاً وتجاوزاً للمألوف في التعبير اللغوي، فقد شكّل المجاز الطاقة المولدة لشعرية النص، فالمجاز هو الانحراف والخروج على المألوف في اللغة، إذ يأخذ المجاز دوراً حاسماً في إغناء الدلالة الأسلوبية في النص الإبداعي، مما يجعل هذه الدلالات الأسلوبية في لغة النص وتراكيبه قابلة للتأويل، والتفسير، وتعدد المعنى والاحتمالات، وهذا ما يمنح النص الإبداعي خصوصيته الفنية، وخلوده المتواصل عبر الزمن.

ولو انتقلنا إلى كتاب الاشارات والتنبيهات لوجدنا اشارات نقدية كتبها ابن سينا بخصوص هذا الفن على الرغم من كونه طبيياً وفيلسوفاً، إذ انتقل إلى ناقد بليغ اتاحت له الفلسفة الولوج إلى هذا المجال الرحب.

وقد يرى بعضهم بأن الشعرية تنهك النص وتثقل من كاهله؛ وذلك لأنها انتقال من المألوف إلى اللامألوف وانزياح من الحقيقي إلى المجازي ومن هؤلاء الدكتور عبد الله الغدامي في كتابه (الخطيئة والتكفير)، فهو يرى بأن تقديم المفعول به على الفعل، والفاعل على الفعل هو ارتباط غير مثالي للجملية العربية؛ لأنها تبنى وفق قواعد واصول فإذا ارتبطت الصيغة المخالفة أصبح هذا نشازاً وشذوذاً عن قواعد اللغة.

أما في النقد الحديث فقد انقسم العلماء على أقسام متعددة ومشارب مختلفة، فكان قسم منهم يرون بأن الشعرية تعني الأدبية (أي تختص بالعمل الفني وغير الفني)، ومنهم جون كوهين، وتودوروف، والدكتور حسن ناظم.

والقسم الثاني يرى بأن الشعرية بمعنى الفن، ويتمثل الفن من خلال العلاقات المتبادلة في عبارات النص الأدبي، ومن هؤلاء كمال أبو ديب، وعبد الله الغدامي، وسعيد يقطين. أما القسم الثالث فيرى بأن الشعرية موضوع عام يخص الأدب وغيره من العلوم الإنسانية والعلمية والتقنية مثل شعرية المسرح وشعرية اللوحة المرسومة، وشعرية علامات المرور، فكل هذه الأشياء تحتاج إلى ابداع فني لتصل إلى ما هي عليه من الرقي والسمو.

وقد تعددت ضروب المجاز عند البلاغيين والنقاد العرب القدماء، إذ شملت معظم الضروب البلاغية التي تشكل جوهر النص الإبداعي وأساسه، وتشكل الطاقة المولدة لشعرية النص وإبداعه. ومن هنا فقد وصفه سيبويه (ت ١٨٠هـ) في مؤلفه (الكتاب) بقوله: ((استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام، والإيجاز والاختصار))^(١)، فالتعبير عن الأساليب المجازية عند سيبويه يعني (الاتساع).

وهذا هو الانزياح الذي أشار إليه جون كوهن، أو بحسب تعبير نقادنا القدماء (العدول)^(٢)، فهو خروج من المؤلف إلى اللامألوف، من عالم الجزئيات إلى عالم اللامرئيات، فهو يريك عين الاضداد، فيجمع الماء والنار، والسموات والارض، والحق والباطل، والخير والشر^(٣)، في جدلية أزلية مرادها الخيال، والاثارة، والتغريب، وتثوير الشعور. وقد قيل: ((الشعراء امراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق المعنى، وتقييده ومد المقصور وقصر الممدود والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته، واستخراج ما كلت الالسن عن وصفه ونعته، والأذهان عن فهمه وايضاحه، فيقربون البعيد، ويبعدون القريب،

ويحتج بهم ولا يحتج عليهم^(٤)، وبحسب المفهوم العام للنثر الفني فإن النثر الفني يعد إحدى الوسائل البلاغية والفنية التي تؤدي إلى تحقيق غايات الشعرية، وكما عرفه الدكتور أنيس المقدسي بأنه: هو ذلك النثر الذي يرتفع به أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة واصالة تنم عن رقي عقلي وفني^(٥)، واللغة الشعرية أكثر ما تهتم بالرمزية الاليائية التي تتوافر في الشعر والنثر على حد سواء بيد انها في النثر تتربع على عرش مكتنز ثقافي وعلمي للناثر، لكون النثر ذا مجال وأفق اوسع مما هو عليه في الشعر الذي يقيدته عاملي الوزن والقافية. ويرى بعضهم بأن الشعرية النثرية خصيصة تتواجد في العمل الأدبي لتكون العلامة الفارقة بين الأدب وغير الأدبي، والشعرية لا تتأتى من المفردة الواحدة فالألفاظ لا تتمايز بنفسها، بل بالتركيب المناسب داخل نطاق السياق فيخرج بناء متماسكا متسقا^(٦).

وتدخل الشعرية في بعض المصطلحات الأدبية التي تعمل على جانين مثل الرمز والسرد والانزياح فهذه المصطلحات الثلاثة تصلح للنثر والشعر، بحسب ما يراه النقاد المحدثون، فإذا كان الانزياح هو استعمال المبدع لمفردات وتراكيب اللغة وصورها استعمالا تخرج به عن المعتاد إذ تؤدي إلى ان تتصف بالفراة والإبداع والجذب والأسر^(٧)، ويرى أصحاب المدرسة الرمزية بأن الياج والتلميح بعيدا عن التصريح وما ينطوي تحت هذه المصطلحات من معان يمكن ان يكون تعريفا للرمز الذي قابله النقاد القدماء بالكناية^(٨) وإذا كان السرد هو فرع من فروع الشعرية التي اهتمت باستنباط القوانين الداخلية للأجناس الأدبية واعتنت بها، واستخراج النظم التي تحكمها، والقواعد توجه أبنيتها وتحدد خصائصها وسماتها^(٩).

وعلى هذا تكون الشعرية في النثر مبتناة من موارد شتى من بينها السرد والانزياح

وأساليب البلاغة المختلفة التي تعتمل في النص الأدبي وتجعل منه كلاما فاعلا مؤثرا في النفس الإنسانية؛ لان التحام اللغة بموارد الشعرية تجعل من النص أفقا رحبا للإبداع والتأثير والتواصل بين المرسل والرسالة والمتلقي.

وقد ارتأينا ان نطبق هذه المستويات الشعرية على نص يعد من النصوص البليغة التي يشار اليها بالبنان، وكيف لا وهي التي صدرت من خاتم الانبياء والمرسلين نبي الرحمة الرسول الاكرم محمد ﷺ، والذي يعد من بلغاء العرب وفصحائها، وهو القائل: ((اني افصح الناس بيد أني من قريش))^(١٠)، وقد اطلق عليها الدارسون بخطبة (الوداع)، لأنها اخر خطبه ﷺ، إذ جرت احداثها ووقائعها في نهاية السنة العاشرة من الهجرة النبوية الشريفة^(١١).

ثانيا: مصادر الشعرية في خطبة الوداع:

وتتمثل تلك المصادر في العادات والتقاليد الجاهلية: ومن ذلك قوله ﷺ: ((وان ربا الجاهلية موضوع، وان أول ربا ابدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وان دماء الجاهلية موضوعة، وان أول دم نبدأ به وفيه مائة بعير، فمن زاد؛ فهو من أهل الجاهلية))^(١٢). تضمنت هذه الفقرات محاور جاءت بها الجاهلية، ولم يكن لها أساس من قبل ذلك، ويتمثل ذلك في الربا الذي حاربه القرآن الكريم في بعض آياته الكريمة^(١٣)، وكذلك ينتقل الرسول ﷺ إلى محور ثان يتمثل في النهي عن سفك دماء البشرية؛ لأنها عادة موضوعة، ليس لها من سلطان سماوي، مستدلا بسر د أسماء بعض الشخصيات التي استحضرها في هذه الخطبة ولم يستثن من التحريم سوى السدانة والسقاية اللتين اثبتهما القرآن الكريم^(١٤)، فضلا عن ذلك نلمس أن الخطبة احتوت على ذكر ديات القتل العمد وشبيهه العمد، وما قتل بالعصا والحجر.

المبحث الثاني:

مستويات شعرية النثر في خطبة الوداع.

١- الاقتباس والتضمين

ميز النقاد المحدثون بين الاقتباس والتعلق النصي القريب؛ وذلك لأن التعلق النصي هو وجود علاقة بين نص ادبي وسواه من النصوص، سواء اكانت العلاقة جزئية أم كلية، ايجابية ام سلبية^(١٥). وثمة نوع آخر وهو المفارقة فهي تعبير لغوي بلاغي، يركز على العلاقة الذهنية، أو كلام يبدو على غير مقصده الحقيقي، فهو قائم على ثنائية المعنى الاول والمعنى الثاني. ويرى بعض الدارسين بأن المرافدة أو الاسترفاد هي ظاهرة اسلوبية تتعلق بالاقتباس ولا يعدونها سرقة كالعبارات الجاهزة التي وظّفها عبد الحميد الكاتب في رسائل الامام علي بن ابي طالب عليه السلام إذ يعدونها هبة أو هدية.

وقد حفلت خطبة الوداع بأنماط متعددة من الاقتباس، وهذا الاقتباس يتمثل بالاقتباس اللفظي وهو ما اخذه الرسول ﷺ، من النص القرآني المتشعب به، كقوله ﷺ: ((من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)) وهو مأخوذ من قوله تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} ^(١٦)، إذ صعق هذا النص الخطابي بطاقة الاقتباس التي نبضت بشريان النص القرآني المتدفق. وهذا ما يعضد الترابط العضوي بين النص القرآني وكلام الرسول الاعظم ﷺ.

وقد يكون نوع الاقتباس ليس لفظيا وانما يصدر عن حديث للرسول ﷺ

يسترسل من خلال الخطبة، ويتضح ذلك بقوله ﷺ : ((ايها الناس ان دماءكم واماوالمكم حرام عليكم))^(١٧) فلو قارنا بين هذا النص والنص المعصوم سوف نجد انزياحا تاما بين اللفظ الاصلي الذي ورد في التنزيل والوارد في نص الخطبة. فالنص القرآني يقول: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ...} ^(١٨). فقد تحقق الایجاز في هذه العبارة فضلا عن شعريّة الاقتباس القرآني؛ لان المعنى الذي قصده الرسول ﷺ قد تحقق بألفاظ قليلة، فضلا عن مراعاة جرس الألفاظ؛ لأنه افاد من الاقتباس في عملية السجع الصوتي. أو جرس الاصوات. والشاهد على ذلك اضافة الضمير المتصل للمخاطب (كم) الدال على المفعول. فتحقق جرس الاصوات الذي انساب على النص في تلقائية من دون تكلف أو تعمد.

وقد يكون الاقتباس كحكم شرعي ورد في القرآن الكريم فيعمد الرسول ﷺ على تكرير ذلك ولكن بأسلوب يتداخل بمفردات الخطبة. ومن ذلك قوله: ((فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من اتممته عليها))^(١٩). فلو أنعمنا النظر في هذه الجملة نجد انها قد وردت في الذكر الحكيم بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} ^(٢٠)، ومن ذلك أيضا قوله ﷺ: ((وان ربا الجاهلية موضوع)) فلفظة موضوع تدل على ان هذا النوع من البيع كان محرما على الناس في الديانات السابقة، وان قريش هي التي وضعت ويرجع ذلك إلى قوله تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} ^(٢١) فقد عدل عن اسم المصدر إلى اسم المفعول، دلالة على الثبوت والبقاء في الوضع، وقد يرد نصا من دون تغيير كقوله ﷺ: ((انما النسيءُ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عاما ويحرمونه عاما

ليواطئوا عدة ما حرم الله)). وقد وردت في سورة التوبة بهذا النص^(٢٢).

٢- شعرية الشرط وجوابه.

وهو اسلوب من اساليب العربية وسنن العرب في كلامها، يتألف من أداة للشرط وفعلها، وجوابها، إذ لا يتحقق جواب الشرط إلا إذا تحقق فعله، وقد أطلق عليه سيويه في مؤلفه (الكتاب) باب الجزاء، إذ قال: ((فما يجازى به من الأسماء غير الظروف: من، وما، وأيهم. وما يجازى به من الظروف: أي حين، ومتى، وأين، وأنى، وحيثما. ومن غيرهما: إن، وإذ ما. ولا يكون الجزاء في حيث ولا في إذ حتى يضم إلى كل واحد منهما ما فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما وكأنها، وليست ما فيها بلغو، ولكن كل واحد منهما مع ما بمنزلة حرف واحد))^(٢٣).

ونلمس شعرية الشرط وجوابه في قوله ﷺ: (فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها))^(٢٤)، فقد تحققت الشعرية في هذه الجملة بوساطة أداة الشرط (من)، وفعل الشرط كانت عنده وجوابه المقترن بفاء الجزاء، ويبدو نمط آخر من الشعرية أيضا في استعمال الماضي والمضارع في جملة واحدة، فالأولى: جاءت بالفعل الماضي (كانت)، والثانية بالفعل المضارع (يؤدي) وقد اقترنت بالضمير الهاء لتسجم مع نمط العبارة الثانية التي تنتهي بالهاء أيضا.

٣- شعريّة التوكيد.

التوكيد لغة التوثيق والتقرير^(٢٥)، وهو تقوية المعنى في نفس السامع، وقصد رفع الشك عن الحديث، أو المحدث عنه، ((وتقوية المعنى في النفس، ويشمل التوكيد بالقسم وإنَّ وأنَّ واللام وغيرها من الأدوات، ورفع الشك عن الحديث، يشمل توكيد الفعل بالمصدر، وتوكيد عامل الحال بها، وقصد رفع الشك عن المحدث عنه، هو التابع الرافع توهم النسبة إلى غير المتبوع أو إلى بعضه))^(٢٦). وقد استعمل الرسول الاعظم ﷺ هذا النوع من الشعريّة من خلال استعمال حرف التوكيد (قد)، فهو إذا دخل على الفعل الماضي يفيد التحقيق، وإذا دخل على الفعل المضارع أفاد التقليل^(٢٧)، كقوله ﷺ: ((أيها الناس الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك))^(٢٨). فقد أكد العبارة الأولى بحرف التوكيد (قد)، فضلا عن ذلك نرى نمطا آخر من الشعريّة من خلال لفظتي الفعلين (يئس ورضي)، فمعنى الأولى يعاكس معنى الثانية، فحقق نوعا من التقابل الدلالي بين الجمل على الرغم من عدم وجود السجع بين هاتين الجملتين، وعضده أيضا الفعلان المضارعان: (يعبد ويطاع) فالمسافة الدلالية بين: (يئس ورضي) كبيرة جدا، على الرغم من تشابههما في الوزن الصرفي. وهذا الأمر تحقق أيضا في لفظتي: (يعبد ويطاع)، على الرغم من تقاربهما في العمل والمعنى؛ لأن العبادة هي من رضوان الله، واليأس يؤدي معنى القنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى، وهو خلاف الطاعة، وثمة أنموذج آخر يتمثل في استعمال (إنما) التي أدت معنى الحصر والقصر، فحصر النسيء وقصره على الكفار ليبين لهم خطأ اعمال الجاهلية، ولم يقتصر على عمل آخر لشدته وشناعته.

ومن التوكيدات الأخر؛ التوكيد بـ (إن) و (اللام) معا واي المتصلة بهاء التنبيه كقوله ﷺ: ((ايها الناس ان لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق))^(٢٩) فشدة المقام أدى به إلى أن يوجز في بداية الفقرة، وأن يفصل بعدها. ويتمثل ذلك بان حذف ياء النداء واستعمل التوكيد، وقدم الخبر على اسم (إن) دلالة على اهمية الأمر، ورعاية لحقوق المرأة التي نادى بها الاسلام الحنيف، وتبناها.

٤- شعريّة الطلب:

يؤدى الطلب بوساطة فعل الأمر ((طلب حصول الفعل من المخاطب، على وجه الاستعلاء والإلزام))^(٣٠)، ويقسم على قسمين حقيقي ومجازي، والمجازي منه يأتي بصيغة الدعاء، وهو من الأساليب الطلبية التي تستدعي خطاباً من الأدنى مرتبة إلى من هو أعلى مرتبة. وللأمر ثلاث صيغ هي: فعل الأمر، والمضارع المسبوق بلام الامر، واسم فعل الأمر. وقد دعا القرآن الكريم الرسول على تحريض الناس من أجل حثهم على العمل الصالح والتقوى؛ إذ قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} ^(٣١)، وقال سبحانه وتعالى: {وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} ^(٣٢)، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} ^(٣٣)، فالآيات الكريمة تشدد على فعل التبليغ والتحريض والارشاد، لكون هذا العمل من المهام الرئيسة لعمل الانبياء جميعاً، وقد تمثل الأمر في خطبة الرسول الاعظم ﷺ بقوله ﷺ: ((فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً)) ^(٣٤)، فقد استعمل الفعلين: (اتقوا واستوصوا) دلالة على وجود هذا العمل، ويبدو أن الرسول ﷺ قد نقل هذه العبارة من قوله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} ^(٣٥)، فقابل بين الخير والتقوى لاشتراكهما بأفعال الخير الموصى بها في الدين الحنيف. وذلك في قوله ﷺ (أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، واستفتحوا الذي هو خير)) ^(٣٦).

ونرى أسلوباً آخر من الطلب متمثلاً في إسناد الفعل (أوصي) لكاف الخطاب في (أوصيكم، وأحثكم)، مما يدل على أهمية هذه الخطبة عند المسلمين؛ لان الحث اسم

جامع للتحفيز والتشجيع لكل معنى الطاعة، ونبذ أصناف المعصية، فضلا عن تحقيق النغم الموسيقي في الفعلين المذكورين في الخطبة، إذ جاء على وزن صر في واحد.

وقد ترد صيغة الطلب بنمط آخر؛ لينتقل بها كلام الرسول من فعل الأمر إلى المصدر ويتمثل ذلك بقوله ﷺ: ((أما بعد؛ أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم؛ فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم))^(٣٧)، فقد انتقل الرسول من المقدمة إلى الغرض عن طريق لفظة (أما بعد)، ثم عمد إلى أسلوب الطلب المتمثل بفعل الأمر المسند إلى واو الجماعة (اسمعوا) المخاطب بها جموع المسلمين، بعد ذلك انتقل إلى أسلوب آخر، فقد عدل عن استعمال فعل الأمر إلى استعمال المصدر، والذي يعود على الحكم الشرعي؛ إذ نجد أن استعمال المصدر يؤدي إلى معنى التحريم، ومنه تحريم دماء المسلمين وأموالهم، وأما استعمال الفعل الأمر في بداية الفقرة جاء لتنبههم على أمر مهم وهذا الأمر يتمثل في نعي الرسول ﷺ لنفسه والدليل الآخر عليه يتمثل في تكرير لفظة (هذا) بقوله بعد عامي هذا في موقفي هذا.

٥- شعريّة التكرير:

التكرير هو إعادة الوحدة اللفظية على نظام لغوي مخصوص^(٣٨)، وهو أيضا: ((الإتيان بعناصر مماثلة في العمل الأدبي))^(٣٩)، ويعد التكرير من العناصر المهمة التي ترتبط بعوامل الموسيقى والدلالة، فالتكرير يدعم هذين العاملين على حد سواء. ونجد خطبة الرسول الأعظم ﷺ قد تجلت بها قيمة التكرير بوضوح باعنا لعامل الموسيقى والدلالة في ذلك النص الشريف. فقد تمثل هذا النمط الأسلوبي في:

أ- تكرير الجملة: كقوله ﷺ: (إلا هل بلغت اللهم فاشهد)، الذي ينظر إلى نص الخطبة يجد بأن هذه الجملة المشار إليها قد تكررت في أكثر من موضع منه، فبعد كل وصية أو فقرة ينتهي منها الرسول ﷺ يأتي بهذه العبارة المحورية التي مثلت فاصلا موسيقيا يؤدي وظيفتين إحداهما وظيفة توكيدية تخصيصية، فليس من المعقول أن يستفهم الرسول استفهاما تصوريا بالحرف (هل)، ولكنه دلالة وشاهدا على تبليغه وصدق دعواه. وقد تكررت هذه الفقرة سبع مرات. بالصيغة نفسها من دون إجراء تغيير.

والملاحظ على الصيغة السابعة إجابة المسلمين بلفظة (نعم). وهذا يدل على قوة حجة التبليغ وصحته وصوابه وتأثيره في أذهان المتلقين، وتأثير عامل (التكرير) وما يبثه من إيقاع لفظي عال؛ ولهذا لم يدع لهم مجالا إلا بالإجابة بـ (نعم)، والاقرار بها.

ب - تكرار اللفظ بعينه: ويتمثل بالفقرة الآتية: ((أيها الناس ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب))^(٤٠)، توزعت أركان التكرير اللفظي على مدى هذه الفقرة، وشعريّة النثر هنا تبرز واضحة جلية؛ لأن السجع فيها لا يعد

زخرفة لفظية فقد جاء عفويًا ينثال على اللسان انثيالًا، يرفده مورد السليقة العربية، الذي دعم هذا الفن البديعي ويتمثل ذلك في تكرير لفظي (واحد وآدم)، وعلى الرغم من انتهاء الجملة الأولى والثانية بلفظة (واحد)، والثالثة والرابعة بلفظة (آدم) إلا أنها لا تبعث السآمة والملل في المتلقي؛ بل تزيده اشتياقا لتلقي النص كاملا، وهذا ما هيأته تقنية التكرير.

ومنه أيضا تكرير اسم الإشارة (هذا) في قوله ﷺ: ((أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى ان تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا))^(٤١). فقد تعدد تكرار اسم الإشارة (هذا) في نهايات الفقرات التي ذكرها ﷺ فلفظة بعد عامي هذا قد تكرر فيها اسم الإشارة، فالعبرة التي تلتها وافت بيان حقيقتين الأولى: ان الرسول ﷺ سيرتحل إلى الرفيق الأعلى في وقت قريب وهذا مسوغ لتوكيد اسم الإشارة؛ لان القوم قد ينكرونه، ويستعظمونه. والحقيقة الثانية: ان الرسول ﷺ هو انسان مثل سائر البشر يموت وينتقل إلى بارئه، وإنما الاختلاف يكمن في انه رسول مبعوث من الله سبحانه وتعالى، والشاهد على ذلك قوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} ^(٤٢)، فضلا عن ذلك تحققت شعرية النغم الموسيقي في هذه الفقرات بوساطة تكرير اسم الإشارة الذي أعطى إشعاعا نغميا مواكبا للحدث الذي يريد ابلاغه الرسول ﷺ.

٦- شعرية التشبيه:

وهذه الشعرية تعتمد على بلاغة التشبيه، والتشبيه هو الدلالة على المشاركة بين امرين في المعنى مما لم يكن على وجه الاستعارة اي ما كان بأداة تشبيه سواء أكانت موجودة أم مقدره مع وجود المشبه والمشبه به^(٤٣)، وقد استعمل الرسول الأعظم ﷺ اسلوب التشبيه في قوله: ((وان الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض))^(٤٤)، فقد شبه بين صورتين الأولى صورة الزمان، والثانية اليوم الأول لخلق السماوات والأرض، وإنشاء الكون، وهذا الأسلوب البياني قد رُفد الشعرية بتقنيتين الأولى: التشبيه والثانية التقابل الصوري، حيث قابل بين صورة الزمان وتغيراته وتقلباته، وبين صورة خلق السماوات والأرض، ويمكن أن تكون هذه العبارة مثلاً يقوله العرب لسوء الطالع، ومخالفة الحظ، وقد يلتقي مع البيتين الشعريين المنسويين للإمام علي عليه السلام^(٤٥):

إِذَا جَادَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ فَجُدْ بِهَا عَلَى النَّاسِ طَرّاً إِنَّهَا تَتَقَلَّبُ
فَلَا الْجُودُ يُفْنِيهَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِيهَا إِذَا هِيَ تَذَهَبُ

فقد قابل الامام علي عليه السلام في ابياته بين خلتي الجود والبخل، وبين الفناء والابقاء، وهي مقابلة تنم عن تجربة حياتية كبيرة، إذ كثرة الجود لا تفني المال إذا كانت الدنيا في اقبال، والبخل لا يبقي المال، إذا كانت الدنيا في ادبار.

الخاتمة:

وفي نهاية هذه الرحلة الممتعة نحب أن نعرض النتائج التي توصل إليها البحث:

١- اختلفت آراء النقاد ومفاهيمهم حول مصطلح الشعرية والفصل بين لغتي الشعر والنثر، فمنهم من يرى بأن لغة الشعر تنزاح من لغة النثر العادي، لينتقل بها الأديب من الدلالة الحقيقية في التركيب إلى دلالات مجازية أخرى تتموج فيها ألوان الجمالية والابداع فتجذب المتلقي وتؤثر به.

٢- تنوعت مستويات الشعرية في خطبة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي يطلق عليها بخطبة الوداع، إلى مباحث بلاغية ونحوية و صرفية عالية المستوى. ففي المبحث البلاغي كانت شعرية الاقتباس والتضمين والتشبيه، فضلا عن التكرير بشتى انواعه على مستوى الجملة والمفردة، كانت له اليد الطولى في هذا الباع، وتمثل ذلك بالتناص المباشر، والتناص غير المباشر، إذ نهله الرسول الأعظم ﷺ من آيات الذكر الحكيم التي وجهها الباري بكل قيم الأخلاق والتهديب؛ لتأخذ نسقا متطورا يمتد بين الطارف والتالد.

٣- إذا انتقلنا إلى المباحث اللغوية ستبرز لدينا شعريتا الشرط وجوابه وشعرية التوكيد التي اخذت حيزا واسعا لا يمكن تغفله لما انمازت به من فروق على سنن العرب وعاداتها من حيث الاستعمال النحوي. وهذا هو السر في جمالية النص المحمدي في خطبة الوداع.

٤- يبدو المستوى الصرفي في توازن بعض كلمات الخطبة وتقابلها، إذ جاءت على الوزن الصرفي فجعلت من تلك الكلمات ذات قيمة نغمية مؤثرة، فضلا عن قيمة الدلالة الرئيسة في الخطبة.

الهوامش:

- ١- الكتاب: ٢١/١.
- ٢- ظ: الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٢١.
- ٣- ظ: أسرار البلاغة: ٤٨.
- ٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ٢٨٦.
- ٥- ظ: تطور الأساليب الانشائية في النثر العربي: ١١١.
- ٦- الشعرية: ٤٧.
- ٧- الانزياح في التراث النقدي والبلاغي: ٥.
- ٨- الإيضاح في علوم البلاغة: ١٠٢.
- ٩- الشعرية: ٢٣.
- ١٠- تلخيص الحبير: ٦/٤.
- ١١- ظ: جمهرة خطب العرب: ١٥٦/١.
- ١٢- م.ن: ١٥٦/١.

١٣- {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} البقرة ٢٧٥، وقوله تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} البقرة ٢٧٦، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ} البقرة ٢٧٨، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} آل عمران ١٣٠، وقوله تعالى: {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} النساء ١٦١، وقوله تعالى: {وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ

مَنْ زَكَاةً تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ { الروم ٣٩.

١٤- قال تعالى: {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} التوبة ١٩.

١٥- مجلة الرياض: ٢٩.

١٦- الإسرائاء/ ٩٧.

١٧- م.ن: ١/ ١٥٦.

١٨- النساء/ ٢٣.

١٩- م.ن: ١/ ١٥٧.

٢٠- النساء ٥٨.

٢١- البقرة ٢٧٥.

٢٢- {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَمُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطُوا وَأَعْدَةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} التوبة ٣٧.

٢٣- الكتاب: ١/ ١٨٨.

٢٤- م.ن: ١/ ١٥٧.

٢٥- لسان العرب ، مادة (وكد).

٢٦- في النص القرآني وأساليب تعبيره: ٩٢.

٢٧- ظ: شرح الأشموني: ١/ ٢٤٩.

٢٨- جمهرة خطب العرب: ١/ ١٥٧.

٢٩- م.ن: ١/ ١٥٧.

- ٣٠- جواهر البلاغة، ٧٧-٧٨.
- ٣١- المائدة ٦٧
- ٣٢- النساء ٨٤
- ٣٣- الأنفال ٦٥.
- ٣٤- م.ن: ١/١٥٧.
- ٣٥- البقرة ١٩٧.
- ٣٦- م.ن: ١/١٥٧.
- ٣٧- م.ن: ١/١٥٧.
- ٣٨- المرشد، ج ٢ / ٤٩٠.
- ٣٩- معجم مصطلحات الأدب: ٤٧٣.
- ٤٠- م.ن: ١/١٥٧.
- ٤١- م.ن: ١/١٥٧.
- ٤٢- آل عمران/ ١٤٤
- ٤٣- الصورة بين البلاغة والنقد: ٣٠.
- ٤٤- م.ن: ١/١٥٧.
- ٤٥- ديوان الإمام علي عليه السلام: ٤٩.

ثبت المصادر:

- خير ما نبدأ به القرآن الكريم
١. أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ) تحقيق هـ - ريتير، مطبعة وزارة المعارف، استانبول، ١٩٥٤ م
 ٢. الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، أحمد ويس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط ١، ٢٠٠٢
 ٣. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني، دار إحياء العلوم - بيروت، ط ٤، ١٩٩٨
 ٤. تطور الأساليب الانشائية في النثر العربي، انيس المقدسي، مطبعة دار السعادة القاهرية، ط ٤، القاهرة، ١٩٨٩.
 ٥. تلخيص الحبير في أحاديث الرافي الكبير، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني، المدينة المنورة، (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م).
 ٦. جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ط ٣، منشورات المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.
 ٧. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية، ط ١، ١٩٩٩.
 ٨. شرح الأشموني على ألفية مالك المسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، الأشموني، تحقيق: محي الدين عبد الحميد.
 ٩. الشعرية، تزفيتان تودوروف، ترجمة: شكري المبخوت، ورجاء بن سلامة، ط ١، بيروت، دار توبقال ١٩٨٧.
 ١٠. في النص القرآني وأساليب تعبيره، زهير غازي زاهد، طبعة مؤسسة دار الصادق الثقافية، عمان - الأردن، ط ١، (١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢).
 ١١. الكتاب، سبيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، تح: عبد السلام هارون، دار القلم، بيروت د.ت
 ١٢. لسان العرب، ابن منظور، (ت: ٧١١ هـ)، اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٣، (د.ت).
 ١٣. مجلة الرياض، عدد ٢، ظاهرة التعالق النصي، نيسان ١٩٩٨
 ١٤. المرشد إلى فهم أشعار العرب، عبد الله الطيب المجذوب، منشورات دار الفكر العربي للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت).
 ١٥. معجم المصطلحات العربي في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، منشورات دار المطبعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٤.
 ١٦. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم

- القرطاجني، تح: حبيب الخواجة، منشورات
كتب دار الكتب الشرقية، د.ت.
١٧. ديوان الإمام علي عليه السلام، قام بجمعه:
قطب الدين الكيدري، (ت: ٥٧٦هـ)، تح:
كامل سلمان الجبوري، منشورات دار الكتب
العلمية، ط١، بيروت لبنان، (١٤١٤هـ /
١٩٩٤م).
١٨. الصورة بين البلاغة والنقد، د. أحمد بسام
الساعي، منشورات دار المنارة للطباعة ونشر
والتوزيع، ط١، القاهرة، ١٤٠٥ / ١٩٨٤.